التحولات السياسية الراهنة في الوطن العربي قراءة عبر البراديغم الجديد

د.أسماء بن قادة، جامعة الجزائر 03- الجزائر

The current political transformations in the Arab world, a reading through the new paradigm

ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى تجاوز المقاربات التقليدية التي تنتمي إلى النظام المعرفي الديكارتي-النيوتوني في قراءة التحولات السياسية الراهنة في الوطن العربي وما تضمنته من تفاعلات معقدة عجزت مسلمات البراديغم التقليدي ومناهجه المعتمدة في بحث ظواهر ما سمي بالربيع العربي والتي تقوم على الحتمية والتجزيئية والقدرة على التنبؤ، في حين تبين أن تلك الظواهر لا خطية في طبيعتها ولاحتمية في نتائج تفاعلاتها التي انتهت في صيرورتها إلى حالة من اللايقين، وبدت بذلك المقاربات التقليدية عاجزة عن تفسير تلك الظواهر، حيث لم يواكب التحولات السياسية الجارية على مستوى الواقع الفعلي تطور مهم على مستوى الأدوات المعرفية ومن بينها المفاهيم والمناهج، وفي هذا السياق تحاول هذه الدراسة الخروج من السجون المفاهيمية التقليدية نحو فضاء البراديغم الجديد بتوظيف مسلماته الجديدة كالكلانية واللاحتمية والمفهوم الجديد للزمن وعبر اعتماد تعددية المناهج والعبر-منهاجية في دراسة التحولات السياسية الأمر الذي منحنا قدرة تفسيرية أكبر لتلك الظواهر وما صحبها من تحولات على مستوى الوطن العربي.

الكلمات المفتاحية: البراديغم، التجزيئية، الاستعجالية، الكلانية، اللاحتمية، تعددية المناهج، العبر-منهاجية، التعقيد، الفوضى، الانبثاق، الشبكة، الدبلوماسية الشعبية، اللاخطية، الصيرورة.

Abstract: This studyaims to transcend the traditional approches thatbelong to the Cartesian Newtonian cognitive system in reading the currentpolitical transformaions in the Arab worldwhere the tradional paradigm and itsapproaches were unable to research the phenomenacolledcalled" the ArabSpring " whichisbased on reductionism,detreminism and predectability,whileit turnes out thatphenomena are nonlinear and undetrmined in the results of their interactions,whichendedin theirbecoming a state of uncertainty, and thustraditional approches seemed to beunable to explain hese phenomena , and in thiscontextthisstudy tries to get out of the traditionalconceptual

prisons,towards the new paradigmspace by employingits new postulatessuch as holistic,undeterminism and the new concept of time withadopting of multidisciplinarty and transdisciplinarity in the study of politicaltransformations wich gave us greaterexplanatorycapacity for thesephenomena.

Keywords: Paradigm, fragmentation, urgency, holism, indeterminism, pluralism, trans-methodology, complexity, chaos, emergence, network, popular diplomacy, nonlinearity, becoming.

مقدمة:

إن الفرضية التي يقوم عليها هذا البحث تنبني على استحالة قراءة التفاعلات المعقدة الجارية على مستوى الوطن العربي من خلال البراديغم التجزيئي النيوتوني القديم الذي انبثقت عنه وصيغت عبره كافة النظريات وتأسست من خلاله المدارس التي قام عليها النظام الدولي والعلاقات الدولية، وأن النظام المعرفي الجديد بمسلماته الجديدة المتمثلة في الكلانية واللاحتمية وعدم القدرة على التنبؤ واللايقين والذي هو في طور التبلور يملك قدرة أكبر على تفسير التحولات التي يمر بها العالم العربي حاليا، ومن أجل بحث هذه الفرضية اعتمدنا توظيف منهج التحليل الابستمولوجي الذي يقوم على تحليل الظواهر من خلال النموذج التفسيري أي البراديغم الذي تنتمي إليه.

نقسم البراديغمات أو النماذج التي مرت بها المنظومة المعرفية التي انبثقت عنها مختلف المعتقدات والقيم والنظريات والمناهج والرؤى ومن ثم السياسات والمؤسسات عبر

التاريخ إلى ثلاث أنظمة معرفية، يتمثل أولها في النظام المعرفي الأول الذي حددناه وفقا لنمذجتنا في النظام المعرفي الأرسطوطاليسي والنظام المعرفي الديكارتي النيوتوني والبراديغم أو النظام المعرفي الثالث والمتمثل في النظام الجديد الذي هو اليوم في طور التشكل والتبلور وسنحاول من خلاله قراءة التحولات السياسية الراهنة في العالم العربي، بما فيها الاحتجاجات والحراك القائم حاليا على مستوى العالم العربي، الأمر الذي يتطلب ابتداء المرور على النظامين الأرسطوطاليسي والنيوتوني كي نتمكن من استيعاب طبيعة الثورة العلمية التي انتجت البراديغم الجديد الذي سيمكننا من قراءة التحولات الجارية على مستوى النظام الدولي والمنطقة العربية.

بدءا بالنظام المعرفي الأرسطوطاليسي الممتد ما بين المدينة –المدينة العالمية- الامبراطورية الرومانية، والذي قام على مسلمات هي مزيج من العقل والأسطورة والإلياذة والميتافيزيقا الأرسطوطاليسية واللاهوت (Marie-Claude Bartholy, Jean-Pierre Despin, Gerald Grandpierre, 1978, p15-16)، والتي نتج عنها مجموعة من المبادئ الجلية التي أفرزت بدورها مفهوما للطبيعة تحدد من منطلقه مفهوم المدينة والمواطنة والمجتمع المدني والتقسيم

الطبقي التفاضلي الطبيعي، ففي المجتمع اليوناني القديم كان الفلاسفة المهتمون بالمبادئ العامة ينتمون إلى طبقة أعلى من الطبقة التي ينتمي إليها المهتمون بالحقائق الجامدة والتطبيقات التقنية وهي طبقة متخلفة عن الأخرى تخلف الجسد عن الروح بتعبير أرسطو فمبلغ العبيد الطبيعي من العقل هو أن يفهم الصواب دون أن يكون حائزا عليه(Mansion Suzanne, 1984, p22-23)، وقد وجه أفلاطون نقدا شديد اللهجة إلى بعض العلماء اللذين عززوا نظريات الرياضيات البحتة أو الميكانيكا باختبارات مفردة على اعتبار أنهم أفسدوا الهندسة وحقروا من تميزها بأن جعلوها تهبط من شيئ عقلاني غير مادي إلى شيئ محسوس(Pierre Duhem, 1958, p50-59)

وقد جرى وضع وصياغة القوانين التي تحكم الشعوب خارج المدن اليونانية والامبراطورية الرومانية مما عرف بالبرابرة إلى غاية مؤتمر وستفاليا وانبثاق الدولة القومية، أما الكنيسة فلم يكن بإمكانها الإفلات من العقائد العلمية الأرسطية التي عملت على إدماجها في جملة معتقداتها، وظل هذا التحالف قائما بين مبادئ أرسطو الجلية وتعاليم المسيحية وهو تحالف عقدي وسياسي في إطار النظام المعرفي السائد من أرسطو إلى نيوتن وعصر النهضة (Philipp Frank, 1957, p47-51)

ولأن احتقار العمل اليدوي الذي كان بالنهاية احتقارا للتجربة وفقا للمفهوم الأرسطي للطبيعة قد أخر تطور علمي الفيزياء والكيمياء إلى غاية القرن السادس عشر الميلادي، عند ظهور الثورة الكوبرنيكية التي كرسها غاليلي، باعتماده الرياضيات في فهم الطبيعة والتي انتهت إلى التأكيد على أن القانون الطبيعي مكتوب بلغة رياضية ومن ثم تحول العلم من العناية بالكيفيات إلى العناية بالكميات(Maurice Clavelin, 1996, p189-195)، فتم بذلك اعتماد القياس وتحولت الفيزياء الحديثة إلى عملية صياغة رياضية للطبيعة، ومن داخل هذا النظام المعرفي القائم على التجزيئية والحتمية والخطية، انطلق فلاسفة الفكر السياسي في أوروبا يبحثون عن القانون الكلي الذي يحكم الظواهر الانسانية ومن بينها السياسية يساعدهم في ذلك انبثاق الليبرالية السياسية وتصاعد وتيرة الاقتصاد الرأسمالي، ولقد اعتمد فلاسفة التنوير سواء من حيث مسلمات النظام المعرفي النيوتوني أو من حيث منهجيته المعتمدة نفس ما اعتمده علماء الفيزياء والرياضيات، حيث استخدموا التجزيئية في تفكيك الظواهر الانسانية والحتمية في التنبؤ بمستقبلها، والتجزيئية هنا تعني أن كل موجود مكون من جزيئات قابلة للقياس وأنه لا يمكن فهم عمل وبنية الكليات إلا من خلال تفكيكها ودراسة الجزيئات التي تتكون منها، لتحديد خصائصها الأساسية والقوانين التي تحكم التفاعلات التي تجري بينها، الأمر الذي جعل جون لوك يطور رؤية تجزيئية للمجتمع الذي يصفه بمجموع أفراده حيث يعلق فريختوف كابرا على ذلك بقوله " تماما كما كان يختزل علماء الفيزياء والرياضيات خصائص الغازات في حركة الذرات كان لوك يدرس طبيعة الانسان الفرد ثم يعممها على الظواهر الاقتصادية والسياسية"(Frijtof Capra, 2003, p32-34)، ولقد أسس لوك رؤيته هذه على آراء توماس هوبس الذي كان يعرف الانسان بقوله " يتميز الانسان عن الحيوانات الأخرى بعقله الذي لا يزيد عن كونه حسابا أي جمعا وطرحا" وكذلك بناء الدولة

الذي استلهمه من الآلة كنوع من المحاكاة أو المماثلة للنموذج الميكانيكي متجسدا في الليفياتان الذي يعني وحش التوراة وهو عنوان كتاب هوبس الذي اعتبر مرجعا أساسيا للفلسفة السياسية منذ القرن السابع عشر وتمهيدا لنظريات لوك وروسو حول صياغة العقد الاجتماعي ومفهوم المجتمع المدني، ويعبر الليفياتان في هذا السياق بقوة عن مسلمة التجزيئية التي تتبنى الفصل بين وظائف الأعضاء، فالنموذج الميكانيكي للدولة الليفياتان يعتبر السيادة نفس الوحش الاصطناعي والحكام مفاصله والمكافأة والعقاب أعصابه والمستشارون ذاكرته والقوانين عقله وإرادته والوئام صحته والحرب الأهلية موته، ولقد عرف هوبس بنبي الفردية الاستبدادية والفردية هنا هي نتاج للتجزيئية ولقد تزامنت هذه النظريات والمقولات لهوبس مع انبثاق الدولة القومية في مؤتمر وستفاليا عام 1648 مع انبثاق الدولة القومية.

إذن ومنذ نيوتن وغاليلي وكبلر وديكارت انتقلت التجزيئية من العلوم الطبيعية إلى العلوم الانسانية ومن ثم إلى علم السياسية من هوبس إلى روسو حيث اعتبرت المجتمعات الانسانية مثل الجزيئات الذرية ولذلك كان لابد من تفكيكها إلى عناصرها الأساسية ثم دراسة كل جزء وتعميم ذلك على الظاهرة ككل من خلال الاستقراء.

أما الحتمية، فإنها المسلمة الثانية التي قام عليها البراديغم النيوتوني، وهي تقوم على أن كل حدث في الكون خاضع لتسلسل منطقي محدد سلفا ضمن سلسلة غير منقطعة من الحوادث التي يؤدي بعضها إلى بعض، وفق قوانين محددة، ويعتبر لابلاس من أقوى دعاتها حيث جعلها تشمل أغلب الظواهر الكونية حتى وصفت حتميته بالحتمية الكونية(Pierre- Simon Laplace, 1886)

وبمجرد امتداد توظيف الحتمية في العلوم البيولوجية حتى انتقلت إلى العلوم الانسانية ابتداء من علم النفس إلى علم الاجتماع مع وضعية كونت وبعده دوركايم وماركس ، إضافة إلى مسلمة الخطية التي تعكس التعبير الرياضي عن الظواهر البسيطة القابلة للتقدير والتي يكون فيها الأثر متناسبا مع السبب، أما الجملة الخطية أو النظام الخطي فهو النظام الذي يساوي مجموع أجزائه.

ولكن ومع تطور علوم الفيزياء والرياضيات بدأت هذه المسلمات تواجه مأزقا معرفيا، مع اكتشافات بور وهايزنبرغ التي أدت إلى نظرية الكم التي تأكد من خلالها أن الكليات أكبر من مجموع أجزائها مما يعني أن دراسة الظاهرة من خلال التجزئة سيؤدي إلى اغفال هذه الحقيقية العلمية التي تؤدي نتيجتها إلى أن الانسان ليس مجموع أعضائه والمجتمع ليس سوى مجموع أفراده والمجتمع الدولي ليس مجموع دوله ومن هنا ظهر مفهوم الكلانية بشكل متزامن في البيولوجيا العضوية والجشطلت والإيكولوجيا، لتمتد بعد ذلك إلى كافة العلوم ومن بينها الاجتماعية والسياسية، منطلقها وقاعدتها الأساسية الكل أكبر من مجموع أجزائه(وليد عبد الحي، تحولات المسلمات في العلاقات الدولية، ص7. JeanChrestian Smuts, 1926, p103-104 .(Frijtof Capra, 1990, p110-120.

ومع علاقات الارتياب في الفيزياء الميكروسكيبية والميكانيكا الكوانتية تحولت حتمية لابلاص إلى حالة من الاحتمال وعدم اليقين، وانهار بذلك التصور الكلاسيكي للحتمية ليحل محله الارتياب وعدم القين، كما حل التحليل الاحصائي محل مبدأ السببية المرتبط بالحتمية (Jean Louis Destouches, 1947, p39-42).

وارتبط تحول مسلمة الخطية إلى اللاخطية مباشرة بتطور الرياضيات (Jean Eisenstaedt, 1999, p56-64)، حيث تطلبت دراسة بعض البحوث والظواهر بناء نماذج جديدة لتفسيرها لاسيما في مجال الميكروبيولوجيا والسيبرنيطيقا وعلى مستوى بعض الأنظمة المفتوحة لعبت الرياضيات الحديثة وعلوم الكومبيوتر دورا كبيرا في التعبير عن الظواهر اللاخطية ومن ثم يكون النظام المعرفي النيوتوني وبانهيار مسلمات التجزيئية والخطية والحتمية وعلى أثر نسبية آينشتين انهار النظام النيوتوني الديكارتي الكلاسيكي تلاه منعطف تاريخي معرفي نتج عنه ظهور نظام معرفي جديد يقوم على مسلمة التعقيد في مقابل مسلمة التبسيط والاختزال.

ويعتبر إدغار موران التعقيد ظاهرة كمية، بسبب الكم الهائل من التفاعلات والتداخلات بين عدد كبير جدا من الوحدات والفواعل على مستوى النظام أو النسق،وتشمل منظومة التعقيد اللايقينياتواللاحتميات والظواهر اللاخطيةوالأنظمة نصف الخطية، ولقد تحولت منظومة التعقيد إلى منهجية في التفكير لها مبادؤها ومفاهيمها الفرعية الإجرائية (Edgar Morin, 2005, p127-134)، الأمر الذي جعل النظام المعرفي الجديد يستند أساسا إليها كمسلمة خاصة وأن أكثرية الظواهر الطبيعية والانسانية ظواهر معقدة ولا خطية في مسارها واحتمالية في تطوراتها حيث يصعب فيها التنبؤ وهي غير قابلة للتجزيئ أو الاختزال الذي يمس خصائصها الكلانية كما يتطلب ذلك التعقيد اعتماد تعددية المناهج و العبرمنهاجية لدراسة الظواهر المعقدة.

والسؤال:

ما علاقة ذلك بالدولة والنظام الدولي والتحولات العربية الراهنة؟

لقد حاولت كافة المدارس مقاربة النظام الدولي من خلال اعتبار المجتمع الدولي وحدات متباينة بينها شبكة من العلاقات تجعل الترابط بين الوحدات ترابطا عابرا ونفعيا وتكتيكيا تكون فيه الدولة فاعلا أساسيا حيث كرست منهجية التجزيئية والحتمية التعامل مع المجتمع الدولي باعتباره أجزاء مترابطة أي التعامل مع الواقع الدولي كأطراف تربط بينها علاقات سببية وحتمية يمكن التنبؤ بنتيجة تفاعلاتها، كل ذلك كان يتم وفقا لمفهوم النظام الدولي وفقا للنظام المعرفي النيوتوني الذي اعتمدته وضعية أوغست كونت.

كما أن الترابط بين وحدات النظام الدولي هو ترابط ميكانيكي وأفضل من وصف ذلك بدقة هو باريتو عندما حدد مفهوم النظام بكونه"نسق متوازن يتألف من أجزاء بينها اعتماد متبادل" وتسببت هذه النظرة التجزيئية الميكانيكية في جعل التفاعلات تتصف بالحتمية التي تستلزم بدورها القدرة على التنبؤ ومن ثم فرض هذا التصور الميكانيكي الذي قامت عليه كافة نماذج

النظام الدولي اعتمادا على مسلمات النظام المعرفي النيوتوني كما حمل الاستقرار في النظام الدولي مغزى إيديولوجيا يجعل من معنى الاستقرار مضمون إيجابي وعدم الاستقرار يحمل مغزى سلبي.

إلى هذا الحد لم تظهر عيوب هذه المقاربات التجزيئية إلا بعد أن بدأ يظهر العجز في التعامل مع حزم التدفقات الكثيفة والمتسارعة القادمة من البيئة الداخلية والخارجية فضلا عن آثار العولمة وعمليات الاندماج بين الشركات المتعددة الجنسيات وحرية تنقل الأموال والأشخاص وتحرير التجارة وفتح الأسواق وإعلام الشبكات والإعلام الجديد والانفجار المعرفي ومن ثم بدت النظرة التجزيئية عاجزة عن استيعاب هذا الكم الهائل من التفاعلات المتشابكة والمعقدة، لأنها تفرض أنماطا ثابتة من التفاعل وهي تركز على الوحدات بدلا من التركيز على التفاعلات.

ولقد لعب الحجم غير المتوقع للسرعة ودرجة التسارع الذي تتم به تلك التفاعلات الجارية على إيقاع الزمن الرقمي بديلا عن الزمن الاستغراقي من خلال ثورة الاتصالات والأنظمة الآنية لعمل الحواسيب عبر شبكة الانترنت تزامنا مع القصور المعرفي في التعامل مع هذه الظواهر المستجدة.

ومع غياب الإطار المفاهيمي المعبر عن الظواهر المستجدة وعجز المسلمات القائمة والمنهج التقليدي عن تفسير واستيعاب تلك الظواهر، انتهى كل ذلك إلى عجز المنظرين عن النمذجة بعد التحولات الكبرى التي شهدها واقع النظام الدولي على كافة المستويات(Bertrand Badie, 1996, p32).

بعد نهاية الباردة، وبدأت أدوات الفعل السياسي تضعف في مواجهة الخصائص اللاخطية لتطور المجتمعات وهو ضعف يرتبط بالحد الزمني المتاح لصانع القرار لاتخاذ القرار وتقييمه فالاعلام وانتقال المعلومات بشكل آني لا يترك المجال الضروري للتحليل حيث لايمكن اتخاذ قرار صعب يتعلق بعوامل مركبة وشديدة التعقيد في ظرف زمني وجيز، ومن ثم بدأت تطرح اشكالية تكيف المؤسسات السياسية مع تغير الأنظمة الاجتماعية بفعل التطور الديموغرافي والتدفق السريع للمعلومات ونوعيتها والتطور التكنولوجي كما أن أجهزة الدولة وأنظمتها الفرعية مثل التربية والشرطة والمالية والعدالة تعيش تفاوتا كبيرا واضطرابا باتجاه التحولات الطارئة على المجتمع والمجتمع الدولي، ويعتبر رئيس الوزراء الفرنسي السابق ميشال روكارد Michel Rocard في دراسة له تحت عنوان مسؤوليات السياسي في مواجهة التعقيد يستشعر صانع القرار هذه الصعوبات ولكنه لا يستطيع تحديد طرقا علمية للتعامل معها كما يفعل المتخصصون في العلوم الدقيقة مع المعادلات اللاخطية ولذلك بات السياسيون يطلبون اليوم مساعدة العلوم الدقيقة في التعامل مع الظواهر السياسية، ابتداء من استغلال تلك النتائج التي أظهرتها الأنظمة الديناميكية اللاخطية فيما يخص المفهوم العلمي للفوضى والانتظام الذاتي...الخ، والاستفادة منها في التعامل مع المعلومات والمعطيات والمتغيرات التي توضع بين يدي صانع القرار (Michel Rocard, 2008, p42-47)، ومن أمثلة التفاعلات المعقدة وما ينبثق عنها من ظواهر وفواعل جدد، ووفقا

لظاهرة الانبثاق المصاحبة لظاهرة التعقيد والفوضى، نسوق مثال انبثاق ظواهر الجماعات المسلحة التي وفرت لها العولمة من خلال حرية تنقل الأشخاص ورؤوس الأموال الدعم اللوجيستي الذي كان له الأثر الأكبر في تكوين وبناء هذه الجماعات والتي تعتبر حالة انبثاق ناتجة عن اضطراب النظام الدولي في مرحلة انهيار المعسكر الشرقي وشركات الأمن العسكرية والمنظمات غير الحكومية والقرصنة الحديثة والجريمة المنظمة وهنا نجد بأن المفاهيم التقليدية للدولة والأمن القومي والسيادة لم تعد قادرة على استيعاب كاف لهذه الظواهر ولاحتى بعض آليات النظام الدولي سواء تلك المرتبطة بالتكيف أو الظبط .(Olivier Roy, 2006, p82-89. Gilles Keppel, 2000, p122-124. Philippe Chapeleau, 2005.p130)

كما شمل التعقيد تفاعلات العلاقات الاقتصادية الدولية، فالاعتماد المتبادل المعقد سجل تراجعا كبيرا لدور الدولة في التفاعلات الاقتصادية وشمل التحول أيضا ميكانيزمات توازن القوى بنية التوازن الحالية قائمة في معظمها على الترابطات الاقتصادية وفي جزء منها على الترابط العسكري بعد التحولات الطارئة على مفهوم القوة ورأس المال الذي بات يقوم على المعرفة، وتعتبر الأزمة المالية نموذجا للتعقيد الذي تعيشه التدفقات الدولية من جهة ولحالة الفوضى التي يمكن أن تعيشها التدفقات الدولية من ناحية ثانية، كما شمل التحول المفهوم التقليدي للحرب ففي محاولة لبناء عقيدة جديدة تقوم على استحالة إقصاء الصدفة في ممارسة الحرب بناء على نظرية الفوضى ظهر نموذج استراتيجي جديد في التكوين العسكري الأمريكي الذي يدرج التعقيد لتحديث المفاهيم الكلاسيكية مثل الاحتكاك وضباب الحرب من أجل مواجهة التحديات الجديدة المرتبطة بالفاعلين الجدد في الحرب وتداخل الفواعل والرهانات الجديدة التي باتت تفرض إعادة النظر في المخططات الجيو-استراتيجية التي كانت تعتبر الدول ذات السيادة فواعل وحيدة في الحرب، ومفهوم التعقيد في الحرب يقوم على الطابع الاحتمالي لعوامل المقاومة ومن ثم لابد من إدراج وسائط احتمالية ويندرج في نماذج الحروب المعقدة أو تفاعلاتها إلى جانب الجماعات المسلحة وحالات العصيان والتمرد والردع والحروب الأهلية والمواجهات الإثنية والطائفية الغير قابلة للتكميم(Barry D. Watts, 2004, p66-68)

وأخيرا التحول في مفهوم الزمن الذي انتقل إلى طبيعة كونية نمطية تعبر عن السرعة المذهلة لتفاعل المعطيات والبيانات فيما بينها بشكل آني مدفوعا بقوة المنافسة التي تسير على قاعدة أنه كلما تقلص الزمن كلما نمت الثروة وتضاعفت ومن ثم بات المطلوب هو التعايش مع ثقافة "زمن اللازمن" كما يقول مانويل كاستلس الذي يعتبر بأن الفرد في المجتمع الشبكي أصبح يعيش في سياق حاضر أبدي، مما أدى إلى الانتقال من المعالجة التسلسلية للزمن إلى المعالجة الآنية الرقمية.كل هذه التحولات أدت إلى حالة من الانسداد التي وصل إليها المنظرون من الأكاديميين في تفسير كثير من الظواهر السياسية فالتطورات المتلاحقة على مستوى الواقع لم يواكبها تقدم على مستوى الأدوات المفاهيمية والمقاربات النظرية لتفسير ذلك الواقع حيث لاتزال معظم الكتابات أسيرة الرؤية التجزيئية والاختزالية.

وقد لجأ جيمس روزينو إلى فكر التعقيد كي يخرج من حالة الانسداد التي وصلت إليها المقاربات الكلاسيكية لتحولات النظام الدولي بعد مرحلة الحرب الباردة حيث يعتبر بأنه وانطلاقا من أن نظام ما بين الدول le systèmeinterétatique الذي بين يعود انبثاقه إلى اتفاقية وستفاليا 1648 قد ضمن استمرارية تسيير الشؤون العالمية كما عبر عنها لأسباب تعود إلى القيود المنظمة والضابطة التي احتوت باستقرارها النسبي كل التغيرات الممكنة داخل نهايات معترف بها وقابلة للتنبؤ، ولكن ولأسباب مختلفة فإن هذه الثوابت الأساسية التي حققت التوازن على مستوى النظام القديم حتى عام 1950 قد تزعزت واهتزت لينبثق عالم جديد غير متوقع وفوضوي chaotique يمكن التعبير عنه بالوضع ما بعد الدولي ,post- international ويتميز هذا الوضع بالدخول في مسار التشعب befurcationنتاج التفاعلات المعقدة التي تعود إلى ما وفرته العولمة من آليات، وقد حاول روزينو عبر إنشاء وتأسيس مجموعة من المصطلحات لوصف الوضع ما بعد الودولي مثل مصطلح (التفتت-التكامل) fragmeration دمجا لمصطلح fragmentation تفتت وintegration تكامل ووظف مفهوم التشعب المرتبط بنظرية الفوضى للتعبير عن الوضع الدولي الجديد(James N.Roseneau, 1990, p11-15).

إذن أدى التحول في مسلمات منظومة العلوم الطبيعية والدقيقة إلى التحول في مسلمات ومنهجية العلوم الانسانية حيث وفرت مسلمات النظام المعرفي الجديد المتمثلة في الكلانيةواللاخطيةواللاحتمية والتعقيد ومفهوم الفوضى والمفهوم الجديد للزمن وحالة الاستعجالية كما يسميها المفكر الفرنسي زكي العايدي ZakiLaidi كل ذلك وفر قدرات تفسيرية لكثير من حالات التعقيد من خلال اعتماد تعددية المناهج Multidisciplinarité أو البين -منهاجية Interdisciplinarité أو العبر- منهاجية Transdisciplinaritéفي محاولة بناء نموذج تفسيري تحل فيه الشبكة محل التراتب وفقا لما جاء به مانويل كاستلس ,Manuel Castells) (1998, p109-110 في كتابه مجتمع الشبكات والصيرورة محل البنية.كما جاء في نظرية فريختوف كابرا للتفاعلات غير المرئية(Frijtof Capra, 2004, p119-121)

وفي ظل هذه المعطيات المعرفية والاستراتيجية والانبثاقات الجديدة للفواعل يكون تناولنا للتحولات السياسية الراهنة في العالم العربي والسؤال:

هل مع هذا التحول في مفهوم الزمن وهذا التسارع في انتقال المعلومات والبيانات وهذا الانبثاق للمنظمات غير الحكومية وهذه التفاعلات الشبكية المعقدة يمكن اعتبار ما يجري في العالم العربي من حراك أو حركات احتجاجية ثورة؟

إن مزيدا من المتابعة والتحليل لصيرورة الأحداث والمطالب والمواقف يضعنا أمام مجموعة من الاحتمالات أولها دلالات المصطلح في النظام المعرفي العربي الذي يتحدد في لسان العرب وثروة ابن منظور اللغوية في معنى الغضب والهيج الذي يتجسد في نوع من التمرد الجمعي الانفعالي، وقد يذهب في النظام المعرفي (الإسلاموي) إلى مفهوم الفتنة حسب بعض الاجتهادات التي تقع داخل إطار قراءة أحوطية لبعض معطيات الواقع، أو الجهاد وفقا لاجتهادات أخرى

تدخل ضمن القراءات التبسيطية لتحولات هي غاية في التركيب والتعقيد، بينما يختلف الموضوع تماما في النظام المعرفي الغربي، حيث يتنمي المفهوم لأبوة فلسفية وفكر سابق للفعل ومنتج للمطالب والمواقف التي تنبثق عن منظومة معرفية متكاملة تقوم على خلفية من الفلسفة السياسية الناتجة عن عصر الأنوار والتي مثلت الدليل لكل الثورات التي اندلعت في الغرب عبر رحلة معرفية وميدانية في آن، حيث يمكن القول بأن الثورات السياسية في الغرب قد ولدت من عمق رحم ثورات علمية وفلسفية.

أحدثت قطيعة معرفية مع النموذج المعرفي الأرسطوطاليسي-المدرسي وتمكن روادها من تحويلها إلى فلسفة شعبية استوعبتها الجماهير ونزلت بها إلى الشارع.

إنه الارتجال إذن، وهو ارتجال دل عليه ذلك الارتباك الثقافي والسياسي والقانوني الذي عاشه شباب الفايس بوك ومواقع التواصل الاجتماعي في حراكه. وفي ظل هذه الحالة من التعقيد والتشعب والفوضى هل يمكن القول بأن القوى الدولية وعلى رأسها الولايات المتحدة بمنأى عما يحدث في العالم العربي من تحولات؟ على خلفية الاخفاقات المتتالية للولايات المتحدة في افغانستان وباكستان والعراق، وتعقد المفاوضات مع كوريا الشمالية وإيران، وانسداد كامل في قضية السلام، انتهت إرهاصات البحث في الولايات المتحدة في آخر اجتهاداتها لمواجهة هذا الواقع إلى مفهوم القوة الذكية، ذلك المشروع الذي ترأسه كل ريتشارد أرميتاج Richard L.Armitage صاحب الخبرة العملية في الإدارات السابقة والشخصية الأكاديمية المعروفة جوزيف ناي Joseph Ney الأستاذ في جامعة هارفارد و صاحب كتاب " القوة الناعمة "، ومن ثم تشهد السياسة الخارجية الأمريكية بدفع من مراكز التفكير ، تحولا نحو مشروع القوة الذكية Smart power التي تقوم على الدمج بين مفهومي القوة الناعمة (Soft power) والقوة الصلبة (Hard power)، أما القوة الناعمة فإن بيل كلينتون كان قد دعا إليها في فترة رئاسته، وهي تتمثل في القدرة على تحقيق أهداف محددة باجتذاب الطرف الآخر من خلال استثمار مكانة الولايات المتحدة وجاذبيتها في التأثير، بواسطة الأدوات الدبلوماسية والمساعدات الخارجية، وأما القوة الصلبة التي استخدمها بوش الابن في حروبه الاستباقية وحربه على الإرهاب وهي تتمثل في القوة العسكرية والعقوبات الاقتصادية، وكما قال روبرت جيتس في سياق ترويجه لاستخدام القوة الذكية "إن طبيعة الصراعات الجديدة تحتاج إلى تطوير قدرات المؤسسات الغير عسكرية، ولا يعتبر ذلك عملا خيريا بقدر ما يمثل سياسة خارجية فاعلة " والفاعلية هنا تتحقق بفعل تقوية التحالفات والشراكات التي تتيح لواشنطن مواجهة مصادر الخطر المتعددة، مع الاهتمام بالتنمية على المستوى الدولي، بتطوير برامج المساعدات، والربط بين المصالح الأمريكية وتطلعات الأفراد في كافة أنحاء العالم، وإعادة استثمار الدبلوماسية الشعبية بإنشاء مؤسسات لا تسعى إلى الربح في الخارج، بقدر ما تعمل على خلق روابط بين الأفراد ومضاعفة الاعتماد السنوي لبرنامج "فولبرايت، إنها الدبلوماسية الشعبية إذن التي باتت تأخذ مساحة لابأس بها من نشاط الخارجية الأمريكية إلى جانب الدبلوماسية التقليدية، ولقد تصاعد هذا النوع من النشاط السياسي الرقمي منذ أن أثبت فعاليته خلال ما سمي ب"الثورة الخضراء" في

إيران إلى غاية الاحتجاجات العربية حيث كانت الخارجية الأمريكية حريصة على تأمين واستمرار عمل المواقع الاجتماعية على الشبكة لمستخدميها من الشباب وحركات المعارضة، فتأمين ذلك التواصل وتوجيهه يعد هدفا استراتيجيا للسياسة الخارجية الأمريكية، أما آخر المستجدات في هذا الموضوع فإنها تكمن في إعلان كلينتون عن تخصيص 30 مليون دولار من ميزانية الخارجية لاختراق الحواجز الالكترونية التي يواجهها الشباب ولتدريب مناضلين يعملون على تأمين تبادل المراسلات والتواصل بين أعضاء المجموعات الناشطة والمدونين، من منطلق يقينها بأن التكنولوجيات الجديدة تعمل على تسريع التغيير السياسي والاقتصادي والاجتماعي في تلك الدول، ولقد أودعت ثمانية وستون منظمة دولية ملفاتها للاستفادة من ذلك التدريب، ولذات السبب كان قد فتح مكتب في وزارة الخارجية الأمريكية متخصص فيما بات يسمى ب "دبلوماسية تويتر " حيث تم استخدامه أيام ما سمي بالثورة الخضراء في إيران من خلال تصميم موقع باللغة الفارسية، وكذلك فتح موقع باللغة العربية أيام الاحتجاجات المصرية، ويجري حاليا تصميم مواقع باللغات الروسية والصينية والهندية، وكانت كلينتون قد أكدت في كلمة لها حول شبكات التواصل الاجتماعي في كل من جامعات نيويورك وجورج تاون وطوكيو إصرارها على العمل على تقنين وإدراج حق التواصل عبر الشبكة ومواقعها الاجتماعية كأحد حقوق الانسان المعترف بها، الأمر الذي من شأنه أن يحول دون ممارسة الرقابة عليها وعرقلة تواصلها، حيث تعتبر الخارجية الأمريكية بأن التواصل الشعبي الخارجي حاسم في تحقيق المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة، وتضيف كلينتون في هذا السياق إلى مصفوفة مصطلحات القوة الذكية والصلبة والناعمة مصطلحا جديدا يتمثل في القوة المدنية، الأمر الذي يجعلنا لا نستغرب عندما نشاهد سيدة الدبلوماسية الرقمية تلتقي شخصيات شعبية وتشارك في نشاطات مدنية وبرامج تلفزيونية جماهيرية مثل إطلالتها علينا عبر برنامج "كلام نواعم" في قناة (ام بي سي)، إنها الدبلوماسية الشعبية! وعلى الرغم من أن الكثير تفاجأ من حركات الاحتجاج العربية لكن مراكز وخزانات التفكير وعلى رأسها نخبة من المفكرين والأكادميين لم تستغرب ذلك الحراك، فمنذ بضع سنوات والعالم البريطاني انتوني جيدنز الذي كان الدليل العلمي لتوني بلير يتحدث في نظريته عن الانعكاسية الاجتماعية التي تقضي بأن المجتمعات لا تفقد السيطرة على الواقع وان التفاعلات الاجتماعية ستؤثر على الآليات السياسية التقليدية structuralisation التي تقضي بان المجتمعات المتعلقة بمجال حقوق الإنسان وترسيخ(Alvin et Heidi Toffler, 2010)

الديموقراطية وفي نفس الوقت ظهرت ثلاثية مانويل كاستلس عن مجتمع الشبكات ومؤلفات فريختوف كابرا عن الاتصالات الغير مرئية وزمن التغيير: العلم والمجتمع والثقافة الجديدة، فضلا عن أكثر من عشر مؤلفات للفيلسوف الفرنسي إدغار موران حول التحولات الضمنية المعقدة التي تمر بها المجتمعات الانسانية والمناهج الجديدة المفترض اتباعها لدراستها، واستيعابها ومؤلفات إيليا بريغوجين، حول قوانين الفوضى وعالم المستقبليات ألفين توفلر منذ كتابه صدمة المستقبل إلى غاية آخر كتبه الثروة الثورية، والذي أثار فيه ما يمكن أن يتسبب فيه تعقيد الظواهر من حالات عدم اليقين وعجز عن التنبؤ، الأمر الذي يتطلب اعتماد منهجية جديدة في دراسة الظواهر المعاصرة، فالشباب والإعلام الجديد لا يقف سوى عند التموجات السريعة،

بينما يقف العلماء والخبراء عند سياقها البنيوي والتفاعلي والصيروري الأعمق لقد انتهى العهد الذي كانت الحتمية تفرض على الظواهر طابعا آليا ميكانيكيا أعمى أجهزة الاستخبارات عن امكانيات رصد حالات الانبثاق المفاجئة التي يعرفها ويدركها علماء التعقيد حاليا، الأمر الذي يتطلب إدراج مسلمة التعقيد ضمن مناهج التكوين والتدريس في كليات الشرطة الاستخبارات والكليات العسكرية وكذا العلوم السياسية والعلاقات الدولية، كما أن المسار النظري التقليدي لعملية صنع القرار الذي يقوم على خصائص الخطية والعقلانية وفقا لمراحل التحضير-القرار-التنفيذ مع الخلط بين ما هو إداري وما هو سياسي لابد أن يعاد النظر في مساره حيث أن ما يجري على أرض الواقع قد يختلف فيه ترتيب تلك الخطوات لأسباب كثيرة ومن ثم فإن العلماء الحاليون من أتباع نسق التعقيد والفوضى والانبثاق والتشعبات يرون بأن المقاربة التقليدية في صنع القرار تقوم على مسار خطي منغلق في حدود المفاهيم التقليدية المؤطرة عقلاني ومعقد لعملية صنع القرار(Antony Giddens, 2001)، وهو الخطأ الذي وقعت فيه الأنظمة العربية، البعيدة عن المخابر العلمية من جهة وعن آخر تطورات مناهج البحوث في رصد وتحليل الظواهر السياسية.

الخاتمة:

في ظل هذه المعطيات يبدو واضحا أن تفسير التفاعلات الشبكية أو الواقعية الفعلية الجارية على مستوى الوطن العربي وقراءة اتجاهات انعكاساتها على الوضع العربي والدولي، يخضع إلى مدى استيعاب التحولات التي تمر بها المنظومة المعرفية وكذا التعامل مع النظام المعرفي الجديد وما يضعه بين أيدينا من أدوات معرفية جديدة تمكننا من التعامل مع مسلمة التعقيد باعتباره تحد وكذا تعددية المناهج والبينمنهاجية والعبرمنهاجية كمقاربات جديدة من شأنها أن تخرجنا من السجون المفاهيمية وما تسببت فيه من انسداد لتضعنا باتجاه فضاءات متفتحة على مختلف المقاربات الجديدة المنتمية الى البراديغم الجديد للعلوم الدقيقة والإنسانية.

قائمة المراجع:

1.Marie-Claude Bartholy, Jean-Pierre Despin, Gerald Grandpierre, La science : Epistémologie générale, éditions Magnard, Paris, 1978.

2.Mansion Suzanne, Etudes Aristotéleciennes, Louvrin, 1984.

3.Pierre Duhem, Le système du monde: histoire des doctrines cosmologiques de Platon a Copernic, Tome1, Hermann, Paris, 1958.

4.Philipp Frank, Philosphy of science, The link between science and philosophy, Dover publication, New York, 1957.

5.Maurice Clavelin, La philosophie naturelle de Galilée, essai sur les origines et la formation de la mécanique classique, éditions Albin Michel, 1996, Paris.

.6FrijtofCapra, La toile de la vie, éditions du Rocher, 2003.

7.Pierre- Simon Laplace, Essai philosophique sur les probabilités présentées comme introduction a la 2ème édition (1814) dont : théorie analytique des probabilités, œuvres Paris : Gauthier-Villars, 1886, vol, VIII, PP,VI-VII.

8.JeanChrestian Smuts, Holism and Evolution, Macmilan&Ldt, London, 1926.

9.Frijtof Capra, Le temps du changement, science, société et nouvelle culture, traduit de l'Américain par Paul Couturiau, Collection : l'Esprit et la Matière, éditions du Rocher, 1990.

10.Jean Louis Destouches, Déterminisme et indéterminisme en physique moderne, dans : problème de philosophie des sciences, Bruxelles, Herman, 1947.

11.Jean Eisenstaedt, Einstein ou Poincaré, pour la science, no 330, Novembre 1999.

12.Edgar Morin, Introduction à la pensée complexe, Editions du Seuil, Avril, 2005.

13.Bertrand Badie, Quand la globalisation fait la différence, Croissance, no 399, 1996.

14.Michel Rocard, Responsabilités du politique face aux complexités ; dans : Déterminismes et complexités, du physique a l'éthique, Paris, La découverte, 2008.

15.Olivier Roy, Echec de l'Islamisme politique, Edition : Le seuil, 2006.

16.Gilles Keppel, Jihad : Expansion et déclin de l'islamisme, Edition : Gallimard, 2000.

17.Philippe Chapeleau, Société militaires privées, enquete sur les soldats sans armées, Editions du Rocher Collection, « L'art de la guerre », 2005.

18.Barry D. Watts. Clausewizian Friction and Future War, Institute for National Strategic Studies, National Defense University, washington, 2004.

19.James N.Roseneau, Turbulence in World politics Theories of Change and Continuity, Princeton New Jersey, Princeton University Press, 1990.

20.Manuel Castells, La société en réseaux, l'ère de l'imformation, Paris, Fayard, 1998.

21.Frijtof Capra, Les Connexions invisibles, Une approche systémique du développement durable, traduit de l'anglais par NikouTridon, Editions du Rocher Jean-Paul Bertrand, 2004.

22.Alvin et Heidi Toffler, La richesse révolutionnaire, Paris, Plon, 2010.

23.Antony Giddens, Sociology,4thEdition, Polity Press in Association, With Blackwell Publishers Ltd, 2001.